درب الواحة

علي كنعان

أدبٌ / شعرٌ

درب الواحة

علي كنعان

مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

المحتوى

— ١ —

دربُ الواحة

ميلاد نسر

النَّسر في أوراس أفرخَ ،

أفرخ النَّسر الجريح

سبعٌ من السنوات عاناها

فأعطى كلَّ ثانيةٍ مسيح

بالنَّار تنتف ريشَهُ . .

تفري براءةَ حسِّهِ . .

تمحو ملامحَ وجهه العربيِّ

ريحٌ . . أيُّ ريح !

★ ★ ★

سبعٌ من السنوات والتنّور في أوراس فائر
فكأنّ بركاناً ،
تميد الأرض من لهثاته الغضبى ،
يفتّق جرحه الناريّ في ليل الجزائر
والريح تعوِل في المزارع والسهوبِ
كأن آلاف الجيادِ
فقدت أعنّتَها ، فوارسَها وهامت دون زاجر
سبعٌ . . ،
وأمطار الجحيم عن المدائن والبراري
لم تنقطع يوماً ،
ولم تُرضع بها الأرض البتولُ
سوى الضحايا من ثمارِ !
سبعٌ .. دروب الفجر تعرفها وأدغال السهاد
سبع شداد

والنّسر يحضن بيضَه فوق الذرى
ويقيه غائلةَ الفساد
فالنّسر أدرى كيف يقتحم العواصف كلُّ ثائر

★ ★ ★

ولأنّ ضيعتنا تعيش بلا نسور
ولأننا فيها ، بإدمانٍ ، نعيش على القشور
اليأس شرّش في جوانحنا ،
فأنهار المداد
تجري بلا جدوى ، بلا جدوى
كما نُثرت بذور
فوق الصخور !
وعلى الذرى السمراء
كان النّسر يحيا كلَّ أوجاع المخاض

لكنّه لم يشكُ ، لم يتعب ،

ولم ييأس .. وقطعان الجراد

تسطو على خيراتهِ

وتقصّ عن جنّاته الفيحاء أجنحةَ الرحيل

كالليل قطعان الجراد

كزوابعٍ سودٍ تسدّ الشمسَ ،

تترك ماتصادفه رماد

وتشلّ في هيجانها الوحشيّ أعصابَ الفصول .

والبعث ، كان البعث في رحم العصورِ

تململَ الصبحِ المغلّف بالضباب

عينَيْ جميلة وهي تنتزع الحجاب

صوتَ ابن بلّلا في سراديب العذاب :

« آن الحصاد

يازارعين دماءهم ، آن الحصاد

فالحنطة السمراء أغرقت البلاد

وعنابر الزيتون نوّرت الشعاب »

★ ★ ★

النّسر في أوراس أفرخَ ،

أفرخ النّسر الحبيب

وهناكَ في قمم الجنوب

وعلى جبين (الأخضر) العربيُّ : أوراس الجنوب

للثّأر يولد من حديد

نسرٌ جديد

في صمته بأس الضّحايا دون مفتاح القناةِ

في عينه زخّات نور

وبصدره غدقٌ من النار التي

أعطت (أبا ذرٍ) أعاصير الحياةِ

فإلى متى ؟

حتى متى بلدي تظل بلا نسور ؟ !

١٩٦٢



النهرُ والحَطَبُ

أراكِ تسلسلين الدفءَ والبسماتِ في أغوار أغواري
فما أدراكِ أنّ الشّمس لا تصحو على داري ؟
وأنّ كرومنا شبّت وشاخت دون إثمار ؟
وأن شتاءنا قاسٍ وضيعتنا بلا نار ؟
أراكِ ، أحسّ في دمكِ الفتيّ هزيجَ تيّار
وأقرأ في سما عينيكِ ، خلف سماهما ،
ميعادَ أمطاري
فكيف طفرت للنهر الذي فاضت عطاياه على الدنيا ؟
وقطعان اللحى السوداء ترصد خدرك الغافي

بلا ضوءٍ ، بلا رؤيا !
ومن أنباك عن جرحي وعن ثاري ؟
ترى حملت إليك الريحُ أفكاري ؟ !

★ ★ ★

كناي غارقٍ في وحشة الغابِ
كقبّرةٍ بلا وطنِ
غريباً كنتُ في أهلي وأحبابي
بلا جذرٍ ، بلا ثمرٍ ، تغوص عرائشي في تربة الزمن
وألف غمامةٍ موبوءةٍ أدهى من الكفنِ
تسدّ عليّ ، خشيةَ أن أضيف الشمسَ ، أبوابي
توطّد رجسَها لبنات محرابي
وتسبك من جماجم إخوتي الأحرار أكوابي
وتمزج بالصديد عصير أعنابي . . .

ومرّ خيالكِ البدويّ في وسني
فأحرقه ، وكاد يبيح إحراقي
وأترع باللّهيب الغضّ أعراقي
لكِ البشرى
أتُعجَن بالسنى الورديّ آفاقي ؟!

★ ★ ★

حياتي لم تعد درباً بلا هدفِ
ومائدةً من الخزفِ
عليها ينتشي ، طيَّ الظلام ، طحالب المدن
وتحت الشمس تقبع دون حلم ، دونما شجن
فيالهفي ..
أأنسى كم تقاسي قريتي السمحاء من شظفِ
وكم قاست من المحن ؟!

أأنساها ؟

أأنسى صيفَها وندى عشاياها ؟

وموت الغول في مجرى حكاياها ؟

أأنساها ؟

وأنتِ صليبها المغروس في دمعي وفي شرفي !

★ ★ ★

تموج حروفك الخضراء في بيداء إحساسي

بحيراتٍ من الحنطة

ويغمر روحي المحروم عيدٌ سرمد الغبطة

أريق ظلاله النديا على الناسِ

لتنفض أمتي عنها بقايا نيرها القاسي

★ ★ ★

ديوكُ الصبح صاحت ملء أسحاري

وأجراس العطاء الغمر دقّت عرس نوّار
رياحٌ من دم الحرّية العزلاء
هزّت صمّ أسواري
رؤىً تنثال من ساحات ذي قارِ
خيولٌ تعبر الصّحراء في عنفٍ وإصرارِ
فوارسها كما يتنفّس البركانُ
في غابٍ من العتمة
رعاة الأمس ، معجزةٌ ..
مزيج من حصاد الشّمس والبطحاء والغيمة
تخلّوا عن مواشيهم بلا ندمِ
وراحوا ينهبون شعابَ مسراهم إلى (الغارِ)
ليبنوا ، من جديدٍ ، في ثبات الأنبياء ،
رسالة الأمّة

وكلٌّ قد أعدّ صليبه من دوحة الإيمان والألمِ

★ ★ ★

مواكبنا معاً ، ياأخت ، فوق مدارج الشهبِ
وفي نظراتنا نارٌ وفي همساتنا رعدُ
وحبكِ لن يعيق النّهر عن جريانه سدّ
فكيف به من الأعشاب والحطب ؟!
معاً ياثورتي نحيا ، معاً نقضي
فجنتنا التي نشقى لها في هذه الأرضِ
معاً نمضي
ورجع صلاتنا ينساب عبر مسارب الحقب :
« أبانا في السماواتِ
لك الملكوت في الماضي
لك الملكوت في الآتي

فخذ ماشئت من أيامي القصوى
ودع لي هذه اللحظة
لأحياها . .
لنحياها . . كما نهوى ! »

★ ★ ★

معاً نمضي ومزودنا
بأشهى ماتضم حدائق الأدبِ
على الأيام مشحونُ
ففي ثمراتها أمضى سلاحٍ كامن اللهبِ
معاً والليل شمّر عن سطوح بيوتنا القشبِ
فقد دارت على المتخشّبين الجوف طاحونُ
وإن لشعبي الكابي ،
ولو كره الدجى ، يقظة !

١٩٦٢

شَــمْشُوْن

الليل والقدر العجوز وقهقهات الشامتين
الليل . . لايدري
والشّـوك ، واللّبلاب . . لايدري
وبنات آوى في رحاب كرومنا
بشمت . . ولم تدرِ !
وغداً كأني بالدم الموّار في صلبي
وبكبرياء الله في شعبي
تنهال طوفاناً من النارِ
وتعود تلك الدار عامرةً

بالغار ، بالزيتون ، بالحبّ
ونعود أحراراً إلى الدارِ
فالرّمل صادٍ ، موجعُ الأحشاء ، للثّار
والشمس تكتم بسمةً نشوى
بأفراح الغد الزهرِ .
وهناك . . خلف الصحو ، في أفق الدموع
خلف ابتساماتِ الأسى الصّفرِ
ووراء هذا الأزرق العاري
أفكارنا تحبو .
فتلتهب السّماء بحقدنا الضاري
وتكاد تنفجر الحروف بألف إعصار .
وإعصارِ
مهلاً . . سينحسر العجاج

ويصخب الأطفال بالسرّ !

★ ★ ★

الريح في الوادي تولْوِل ، والعنادل
حطت — وأين الظل ؟! — تشكو للردى مأساتها :
« الفجر كان لنا . . وميعاد النسمات الصديقة
كانت لنا تلك الحديقة
يافا . . وأشرعة يضاحكها المدى
فتئن ذاهلة كأن وراء أنّتها الغدا
خضراء أو بيضاء أو حمراء خافقة السنى
كانت لنا . .
كانت لنا . .
كانت بما فيها ، وكان لنا
في ظلها الندیان أجنحةٌ طليقة

نشدو فيصحو برعم غنجٌ ، حريريّ الغلائل
وتفوح زنبقة رقيقَة
ويبيت عملاق الذرا في كل عرس ، كل محنَة
سهران يرعانا بلا أجر ، بلا منّة
فتسيل في أندى حناجرنا محبّتُه العميقة
وبصدره يتشوّف النسر الأغر إلى كوى الجنّة

★ ★ ★

كانت ، أجل كانت . . وما زالت ،
ولكن آه من يقوى على ذكر الحقيقة ؟! »

★ ★ ★

المعبد الهمجيّ : كهّانٌ ، قرابينٌ ذليلة
ملك يهوذيّ
وحاشية بلا عددٍ

وغانية لعوب

وثنية النهدين والعينين والخطوات ،

صهباء الجديلة

شهق المصلون السكارى ، باسمها

فتنهد المحراب وانتفضت شرايين الغيوب :

« أيْ ، أيْ . . دليله ! »

وفتى خرافيّ السمات يلوكهم بلحاظهِ

ويدور محرور الضغينةِ

وهو يرزح بالسلاسل :

« لو لم يكن سري لديها

لو لم أنم والباب ، طولَ الليل ، مفتوح لها

لو لم أثق بأبوّة التجار تدفعني ، بلا ثمنٍ ، إليها

لم يهوِ راعي القمة الشماء فرخاً في يديها ! »

★ ★ ★

وتفتقت شفتاه في ريبِ

وتراقصت أرجوحة القلب :

« شعري يعود إلى مداه الأوّلِ

هبني رضاك وعونك الأبويّ ، ياربي

وصمودك العربي ، ياشعبي

كي تنجلي

كل الغيوم السود عن مستقبلي »

وتلفّت الأوغاد في رعبِ

« شم ـــ شو ـــ ن ! »

أين المفر ؟ وكيف ؟ غلّق كل بابِ

وخبت على يده المجامر ، يالقطعان الذئابِ

من نقمة الراعي ومن هول الحساب

« خذهم بما اقترفوه من ذنبِ

أعداؤنا عطشى فضبّ لهم
حمماً من السحبِ
وعليهمو .. وعليّ ، ياربي ! »

★ ★ ★

الريح في الأبواب ،
في الساحات ،
عبر الأوديَة
خيل تحمحم .. يالها غرثى جريحة
ويهيجها ، سحراً ، دويّ الانفجار
فتغير خاطفة سنابكها خصيلات من الشّهب
لكأنّ خولة في الطريق إلى ضرارِ
لكأن سيف الله في الركبِ
(القادسية) تستفيق

وتهدرُ (اليرموك) في دربي

فالمعبد الجبّار لا يقوى على ستر الفضيحة :

ملك وخصيان وغانية كخمر المعصية .

كلٌ تلقّى ، تحت نعليه ، ضريحَه !

★ ★ ★

الريح تنضو ثوبها الدامي ، تحور إلى نسيمِ

خطرت ومعبدهم كمقبرةٍ

تُركت بلا عسس ، بلا سورٍ

وركام طغيانٍ عدائيٍّ لئيمِ

كومٌ من الآجر ، آلهةٌ مشوّهةٌ

وألواحٌ معفّرة الرسومِ

أعقاب أعمدةٍ رخاميّة

وسلاسلٌ مرفضّة الحلقات ، مرميّة

وصدى أنينٍ غائرٍ في القاع ، مطمورِ

★ ★ ★

وتدبّ في الأنقاض . . كالنبضِ
حمى مخاضٍ يستفزّ كوامن الأرضِ
وحفيف روحٍ ،
من سماءٍ غير تلك القبّة البلهاء ،
منقضّ
شمشون ينفض عنه أكداس الترابِ
فنهب في فرحٍ طفوليٍّ عنيفِ
نبكي ، نلفلف جرحه بشفاهنا
وبما تبقّى من تجلدنا النزيفِ
فيعود أقوى ما يكون ، مجنّحاً برؤى الشباب
ثمل الفخار بحبنا المتورّد الغضّ

والطير تصدح حوله مزهوةً
وترفُّ تنثر من أغانيها العذابِ
في لهفة الغرباء للأوطان ،
في ظمإ الأجنّة للوجودِ
أسطورةً من موطني سكرت بها روح الخلودِ
أسطورة البطل الذي ضحّى
ويبعث كالنبوءة من جديد !

١٩٦٠

كلمات في آخر الليل

لاليغولا

الحزن يصفعني ، يعرّيني . . وهم يتنفّسون
طلاب شمرا* – ويلهم ! ـــ يتنفّسون
عمالها . . يتنفّسون
أطفالها . . يتنفّسون
ويلٌ لهم ،
لم يسمعوا صوتي تناقلُه الرياح الجائعه ؟ !

---

* رأس شمرا : مدينة أثرية على الساحل السوري .

يتأوّهون . . !

أيحق للموتى ــ ولم آذن لهم ــ خدشَ السكون ؟

يتنهّدون . . !

الويل لي ،

وحدي أنا

وحصاني العاري

وهول الفاجعه !

★ ★ ★

هذا حصاني . .

فوق ما يهذي به الشعراء في أوكارهم ،

فوق البشر

علّمته فضّ العذارى آن يزخمنّ

بالدفء الملوّن والشذا غيثُ الربيع

عوّدته رشفَ الدماء فكلّ مائدةٍ رضيع !

سيظلّ في صدر الليالي ،

في ثرّيات المعابد ..

من سنابكه أثر

عاف المصلّون الأذان المنتظر

وصهيله ينساح مدّ الحقلِ ،

في الساحات ، عبر المنحدر :

« لا إله

يهب النّاس الحياه

ويذيق الموت إلا كاليغولا !

فارهبوه ..

ارهبوه .. »

★ ★ ★

في رأس شمرا لا تراثَ

لمن تلوّث بالجراح أو العرق

فإذا سغبت فكل صغارك جهرةً

وامسح لسانك بالشفق

في رأس شمرا لافصول :

الزرع ينبت في الهواءِ

فلا ثمار ولاجذور ولا ورق

في رأس شمرا يستوي الأحياء والموتى

ويختلط الشروق مع الغسق !

★ ★ ★

العمر محدودٌ بمملكتي

عشرون عاماً للعجائز ، والصغار

فجر الفطام ، وللشباب

بركاتيَ الأولى بحبّ الانتحار !

★ ★ ★

أمسِ انتصرت على الحياة

أمس انتقمت من الحياة

حتى الهواء حبسته طيّ القوارير الحديد

حتى الهواء حبسته عنهم ،

نزعت رئاتهم ،

جوعان للدّم والصديد

فلكم سكرت على صدى آهٍ وآه !

.. واليوم ينتفض الربيع الطفلُ

من تحت الجليد

الويل لي !

عادوا وهم يتنفّسون

فالخزي ، ريح الخزي تجلدني ،

تعرّيني .. وهم يتنفّسون .

نبوءة الدم

— ١ —

الضّحايا ..

وأكتم الشهقة الأولى

حذار الأبواب ، خوف الزوايا

الضّحايا ..

حتى الهواء أداجيه ، اصليّ

ألاّ يؤوّل أنفاسي كما يشتهي

فكم زفرةٍ صفراء نامت خنقاً وراء الحنايا

رهبةٌ تعجن البريء على الجاني ،

تشكّ الجنين في عنق الشيخِ ،
تساوي بالمحصنات البغايا
الضّحايا . .
لترتوِ النّار في أحشاء نيرون ،
كلُّ شعبي ضحايا !

— ٢ —

ويشدُّ الكرى عصائبه حمراً
وسوداً على العيون الكليلة
هو والموت توأمان فغامر
وتمرّد على قواه الهزيلة
سيظلُّ السلام لوحة سمسارٍ ،
شباكَ المستنقعات الوبيلة

بالدم الحر تستطيع ..

تدكُّ السور ، تجلو حراسه ،

بالدم الغالي تزيل الحواجز المستحيلة !

— ٣ —

ويل هيلين !

لم يزل عرضها ينزف ناراً . . .

فيشرب الليل ناره

وبأسنانها أصابعها تدمى ،

صليب الذكرى يسمّر عينيها

فتعيا عن حمله ، ترتمي ، تبكي نهاراً

لن يغسل الدمع عاره

ويلها ، ويلها . . كفاها عويلاً

ألف آخيل لن يرد البكاره !

* * *

وأرى ذاهلاً إلى الشمس صفراء

تواری في غامر الليل ، عجفاء

وتصحو وردية جبّارة

وإلى البذرة الولود

تشقّ الأرض سرّاً ،

تفتّ حتى الحجاره !

وإلى الحرف . . رجعه يوقظ الموتى

ويبني من الطلول حضاره

وإلى الكادحين تثمر في الحقلِ

جراحاتهم ، تغلّ بلا منّ

وتكسو عرس الرمال نضاره
فتسيل الحياة ملءَ شراييني :
طريقي ضحى ، ويزهر إيماني ..
أهيلين بشراكِ فشعبي سيستردّ البكاره !

٨ آزار

لم يكن عيداً سماويّاً ولا عرس إله
كان من شعبي الى شعبيَ ميلاداً ، حياة
نحن عدنا من كهوف الموتِ ،
لبـّينا شكاواكم فهبـّوا
يانيام الأبديـّة
بوجوهٍ وقلوبٍ عربية
وبأيدٍ عربية

نبدأ التاريخ طفلاً

نسبك الرمل حضارة

نحن ثرنا . .

نحن مزّقنا الوجوه المستعارة

وأعدنا لك ، يا عذراءنا ، يا عربية

بالدم الأغلى أكاليل الطهارة

عربية

عربية

في الجذوع الجوف إعصارٌ

وفي حطب الأجيال نارٌ عربيه

أنا في بغداد منها . .

أنا في بغداد أحبابيَ ، بغداد القضيّه

طائرٌ يسترق البشرى ويومي بالتحيّة

أنا في فرحتها طفلٌ . .

وفي ساحها الغبراء جنديّ قضية

عربية

عربية

عاد من غربته آذار عاد

بطلاً طافت بنا رؤياه ليلاتِ السهاد

عاد ، عاد

ثائراً من صوته ينتفض الموتى

ومن أنفاسه تورق ذرّات الرماد

نازعاً عن وجهه الميمون كلّ الاقنعة

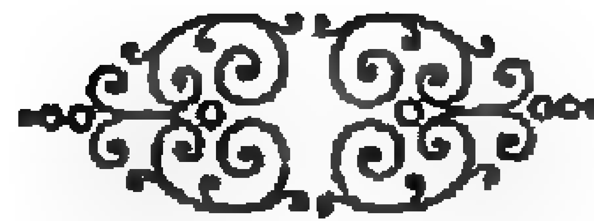
عاد . . شمسُ البعث في عينيه لاتخبو

وفي كفّيه أغمارُ الحصاد

عاد آذار ..

وعاد الله يرعانا معه

١٩٦٣



— ٢ —

بدوي في دمشق

ابو شقرة

في ليلة الميلاد

« إلى ممدوح عدوان . . ومواعيد المطر ! »

لم أنمْ . . كنت وحيدا
والسكون العنكبوتيّ يغشّي عالمي
ناسجاً حوليَ تابوتاً جليدا
« من أنا ؟ » غمغم شيءٌ خلف حسّي
« ماحياتي . . هذه الحرباء ؟! »
وانساح السؤال
تافهاً ، مرّاً ، بليدا
في سراديب من الوهم ، سراديب كنفسي

بابها — إن كان للمغلق بابٌ — مايزال
حلمَ طفلٍ غجريّ الدم ، خيطاً من محال

★ ★ ★

لم أنم ، من لي بغمضة ؟
وملاك النّوم يمضي في إجازة
دارجاً خلف الرؤى ،
خلف ارتعاشات الخيال
إنني أحيا كفأرٍ جائعٍ في مصيدة
سمّها — إن شئت — غرفة !.
أقضم اللاشيء ، أصغي لعزيف المردة
وارتمت عيني على الحائط صدفة
فاعترتني رعشةٌ باردةٌ حيرى

كموسيقى جنازة
وكأمٍّ فقدت كلَّ بنيها ..
كدت أبكي
في حقولي للندى جوعٌ ولهفة
ويدي تمتد في شبه مخفّة
لتواري في رماد المدفأة
بضعةً منيَ ، نسغاً جفّ ، عيناً مطفأة ،
جثةَ الضّيف الذي لم يبقَ من جثمانه غير الكفن :
عاميَ الميْت المسجّى في غيابات الزمن

★ ★ ★

وفجاءة ..
مزّقت عني خيوطَ العنكبوت
همسةٌ تندى حنواً وسماحاً وبراءة

أنةٌ تحمل آلام البشر

رنةُ الأجراس يهتز لها قلبُ الحجر

وقطيرات دمٍ .. صحو القمر

ودّ لو يغرق فيها ويموت

فبدا لي أنّ أخشاب الصليب

أخذت تخضر ، تنمو ..

تملأ الدنيا أراجيحَ وطيب

فتعلّقت بغصنٍ أيّ غصنٍ !

وعبرت الباب في ثوبٍ قشيب

ناسياً قسوة حرماني وسجني

★ ★ ★

كان وجهي قاسيون

لا أحسّ الشوك يدمي قدميّ

والصخور الزرق أشباح المنون
تتمطّى ، تستثير الرعب فيّ
ذاهلاً حتى عن الليل ولدغ الزمهرير
واشرأبّت من جيوب القاع أعناقٌ
ولفّتني عيون :
« ويحه .. ما يبتغي ؟
هذا جنون !
فرّ منّا ؟ عافنا ؟ ياللشقيّ !
شُدّه ، ياقاع ، حاذرْ أن يطير
جُرّه غصباً إلى جوف الحضيض الأبديّ .
.. كدت أهوي رمّةً باليةً من ألف عام
فتلقّتني يد الله كإبراهيم :
« ياتار اخجلي ، كوني لإبراهيم

بردا وسلام ! »

ما أنا لولا صدى الأجراس إلا مومياء

أترى لي منك ، یا میلاد ، أنس أو عزاء ؟

★ ★ ★

وعلى أجنحة اللّحن الوديع

طرت لهفان إلى أرض السلام

فتراءى لي سنى ضوءٍ كجرحٍ في الظلام

يا إلهي !

لم يكن نجماً ولا شمساً ولا بدر تمام

ليس مما تتبنّاه ادعاءات الحضارة

قفّ شعري ، غرغرت عيني ..

غصّت بالدموع

إنّه طفلٌ وليدٌ في مغارة

جنّت الانجم لو تلثم خدّه

وتدلّى العرش كي يصبح مهده

سأحييّه بسجدة !

كيف لا أعبد روح الله في طفلٍ رضيعٍ يتكلّم؟

أمه العذراء، نبع الطّهر، مريم

سعف النخل ارتمى في كفّها البيضا شموع

« يايسوع !

أنا انسانٌ، غريب الصنع، مبهم

أنا طفلٌ مزّق الحرمان قلبه

أنا روحٌ يتألم

عرف الله محبّة

داوني، فكّ قيودي .. يايسوع

فحياتي كلها ضيمٌ وزيفٌ وتفاهة

مع موسى قد بلوت اليمّ ، عانيت المتاهة
فبنفسي لم يزل بعد متاهة !
بين ضيق الجبّ والسجن ذوى ورد الحياة
ورياحين الشّباب
يازليخا . . لم أكن عندك قدّيساً ،
ولكنّي جبان !
في دمائي ، آه لو تدرين ، فيها أفعوان
لم يكن يعرفه الصدّيق ، آه !
وبجوف الحوت قاسيت الدجى ،
ذقت الهوان
مثّلوا بي واشتفوا يومَ حُنين
وطوت باقي رفاقي كربلاء
قبل أن أستطيع دفع السيف عن صدر الحسين

ومسامير الصليب

لم تزل أعقابها في جبهتي والمعصمين

لم تزل تدمى . . ومن لي بالطبيب ؟

آه من لي بيدٍ تمسح أوجاعي ؟

وأبواب السماء

أغلقت دون ابتهالاتي فلم أبرح ضريحي

رحمةً بي يامسيحي

فاتني ، بل لم يكن لي فلك نوحٍ

مدّ لي كفك فالطوفان يرغي حول روحي !

★ ★ ★

وكرفّات مناديل اللقاء

رفرفت اجنحةٌ خضراء حولي

نسخت عن عالم البغضاء ظلي

حملتني فوق مايطمع روّاد الفضاء
ودعاني الوهم فاستسلمت حتى
خلت بل أحسست روحي
نسمةً تمرح ماشاء لها عرض السماء
نفحةً من نفَس الفردوس ، من صدر المسيحِ
طفلةً تحبو على وجه المساء
تركت للطين ثوبَ الطين مكمّد القروح —
فعلى متّكآت الشام آثار ضريحِ
كنته يوماً — وشقت دربها عبر المدى ،
عبر ضباب الأزمنة
وعلى سابع نجمٍ في الثريّا
سمّرت أهدابها حطّت ونامت

سنةً بعد سنة

★ ★ ★

واحتواني صوتها :

صوت التي كانت رجائي

دافىء النبرة ، غضاً ، كوثريا

رفّ بالنعمى عليّا

قال : هيّا !

— صوتها . . من أين ؟

بل أين أنا ؟ أين الثريا ؟ !

آه مازلت هنا سهران وحدي أتململ

ورفوف الكتب البلهاء مثلي تتململ

وعيون الليل حولي تتململ

فتذكّرت أبي ، أمي ، وبعض الاصدقاء

مات في أعينهم وجهي وما ماتوا لديَّه
نارهم تنبش أيّامي وتجتاح دمي دون انطفاء
ويضيع العمر أوجاعاً وأوهاماً كلَيلِ الشعراء
وأنا أحمل في قلبي عذابَ البشريّة
وبعينيّ دموعَ الانبياء

١٩٦٠

الشَّبَحْ

كرصاصةٍ بلهاء ، كالقدر الضّرير
كان القطار وراء سكّته يسير
وأنا أسير
لا درب لي ،
لا سقف يفرش ظلّه حولي ،
وكابوس الهجير
رقطاء تبلعني ، تمزّقني ، وتنفثني
على سأم الرصيف
كرماد منفضة الخريف

من أين ؟.. لا أدري ،
ولا أين المصير !
طفلٌ بدون اسمٍ ، بلا حسٍّ ،
بلا وجهٍ .. يسير
شبحٌ يطوِّف لاهث الخطوات ، مختنق الضمير
ويهز صوتُ الريف أعماقي فأشعر بالحياة
فجريّةَ الأنداء ، خضراء الملامح ، بالنعيم متوَّجَة
من داخلي تنداح كالعطر المخبَّأ في عروق بنفسجة
لكنها سرعان ماتخبو على السّطح الموات
كفقاعةٍ صفراء من زبد الشّوارع في الهجير
وأنا كمن في نومه يهذي ، يحدِّق ، أو يسير
أتصفّح الآلاف من هذا الجراد المستطير
لا عين ترمقني بحقدٍ أو حنان

لا كفّ توقظني ، تمد لي التحية ،
لا لسان
لا ثغر يبسم من صميم القلب لي
وإن ابتسم
فلما تصوّره بجيبي من نِعم

★ ★ ★

ويصيح بي من حبسه الذهبيّ تمساحٌ بليد
« ماذا تريد ؟ »
ـــ : أنا ؟ ما أنا حتى أريد ؟ !
ياسيّدي ، لاشيء ، لا أدري ،
أفتّش عن صديق
حيٍّ ، وأين الحيّ ؟ !
أبحث عن طريق

عن منفذٍ لأفرّ من هذا الحريق

★ ★ ★

وأظلّ كالشّبح المخدّر عبر دنيا من قبور
ويظل في رأسي صرير
ذاك القطار وراء سكّته يسير
كرصاصة بلهاء ، كالقدر الضرير

١٩٦١/٧/٥

أنسام الواحة

سئم اللّين الحريريّ المغلّف
كفرت عيناه بالضوء المزخرف
وكفرخٍ ريشه الغالي تنتّف
في ليـــالي الزمهرير
وعيه يلبد في ضيقٍ مرير
خدر الطعنات ، ثلجيّ ، مكثّف
بعد ما كان شفيف الحس ، مرهف .
هذه دنياه كاللّعنة ، سوداء ، أليمة
كل دنيا حوله مدهونة الوجه ، سقيمة

أرضها الدكناء ، أهلوها ، سماها
كلها أشياء لا ترجى ، عقيمة
أين منها . . . ؟
آه ، لا أين ! فما زالت هنالك
تترامى دونها ألف مفازة
عميت فيها المسالك .
قلبه ناقوس ديرٍ ما تبقـّى
فيه من مجد التّراتيل القديمة
غير ألحان جنازة !
آه كم حطّ على الماضي ورفرف
آه كم ناح بمنفاه ودقـّا
يفد الطفل إلى الغبراء مكره
يتمنـّى ، يتلوّى ، يتلهـّف

لونه يتصل فيها وهو يشقى
ثم لا يملك أن يختار قبره
فكما جاء سيمضى وهو مكره !
عجباً .. كيف ؟ ولم لا تتمزّق
رئتاه وهو يشهق ؟
فيها لم يبقَ من أنفاسه غير زوايا راعفة
صدره يعلو وينهار كزورق
في مهبّ العاصفة
لحظاتٍ .. وسيغرق !

★ ★ ★

وكما تستسلم الأشرعة المطواع —
والميعاد يأزف
للرياح العائدة

تركَ السبعين في كفّ نسماتٍ حنون
باركَ الله حنان الوالدة !
نسماتٌ وافدة
من وراء السور ، من خلف الحدود الشائكة
من عشاياه الجميلة
مع من هيهات أن ينسى .. أتُنسى عاتكة
أخته الصغرى ؟ وهل تنسى تماضر ؟
وصبابات حياةٍ كلها مرّت طفولة ؟!
من لدن « ليلى » و « حادي » و « رحيلة »
من عيونٍ كالاساطير حباها الغيب عمقَه
ورمى في لجّها المعسول آلاف الدرر
يستقي نيسان منها لونَه الدافي وشوقَه
ويغطّيها بأوراق الزهر

تاركا شطآنها زاداً لأطفال القمر .

* * *

نسماتٌ من عطاء البادية
عبرت شباكه المغلقَ ،
كالاحلام في ليلة عرسٍ صاحية
كطيوف العافية
حملت هيكله كرماً خريفيا وطارت
لحظاتٍ أم دهوراً من شعور لايسمّى ؟
خدر لم يبقِ في دنياه ضيما
لم يدع في النفس غما
طالما تاق إلى رعشته البكر وحنّا .
ملَكٌ ينأى به شيئاً فشيئا
زارعاً في القلب دفئا

فارشاً عينيه ضوءا

طالما تاق إلى لمسته الاولى وحنّا .

نسماتٌ حرّةٌ طارت به ،

طارت بعيداً وتمادت

لحظاتٍ أم دهوراً ؟..

ثم حطّت فوق ربوة

★ ★ ★

« هاهنا . . ماذا ؟

غيومٌ أُشربت لونَ البنفسج

وضباب يتوهّج

في ليالي السجن كوّة

وصدى آهٍ رخيم

يتهدّج

حاملا في جرحه لي ألفَ دعوة .
هاهنا فتّحت عينيّ على صدرٍ رحيم
في دمي يسكب ، في روحي ، رضاه وحنوّه
وهنا أختي تناغيني ، وليلى تتثنّى
وأبي ينحر للضّيف ،
ويسقي صحبه السّمار قهوة
وبما أهوى ربابي يتغنّى
وتماضر . .
طفلةٌ تسرح بالطّليان ، حلوة
كل أطفال القبيلة
عشّشت أحلامهم وجداً بهاتيك الجديلة
حبّها عسّل في قلبيَ سراً
رشّ عطراً ، صبّ خمرا

حبّها أنبت فيه أقحوانة

منذ أن كان لنا عمر الهلال

ثم صار القمر المفطوم بدرا

وهوانا باشتعال

فأثاروا حولنا كلّ أعاصير الرمال !

ألف عذرٍ لهمو ، ألف رثاء

صدرها المكنوز لم يمطر على غيري حنانه !

* * *

عرسنا . . ماذا عن العرس الجميل

كلّ أياميَ سالت معها عرساً طويل

غير يومٍ !

لارعاك الله يايوم الرحيل

* * *

وغزتنا من وراء الغيم ، من خلف الافق
بومة تنعى علينا أن نعيش
في البراري كالوحوش :
(أين أنتم من ثريات تلاشى
دونها موج الغسق ؟
موحشٌ ليلكم المحروم من سحر المدينة
فارغ العينين من ذاك الالق
أين هذا القفر من أنس المدينة ؟
لاأرى فيه سوى حفنة أشباحٍ حزينة
ورمالٍ ونباحٍ مختنق
وصبايا كالرخام المحترق
وبيوتٍ من عصيٍّ وخرق !
وهناك ..

في المدينة

في دهاليز المدينة

غادة شقراء في ثوب ملاك

أين من لفتتها هذي الحياة التافهة

ترقص الليّل وتشدو والهة

وتساقيك شراباً قطّرته الآلهة

ثم تدعوك الى نوم النّهار

في فراشٍ من حرير

وسريرٍ من نضار

فاح من أطرافه أشهى عبير

يجلب الاحلام من خلف البحار .

. وعلى سطح المدينة

أنت تدري ماعلى سطح المدينة !

★ ★ ★

بيتنا السّمح الذي ذقت به أحلى الحلال
يتقوّض
وتغنّي آسه الذاوي ، سناه المنطوي
ريحُ الشمال
وعلى أغنامنا تعدو ذئاب
وعلى الكثبان لألاء السرابْ
لوحةٌ من غدنا مطروحةٌ فوق الرمال

★ ★ ★

وتلقّتني المدينة
حلوةً ، لاهبةً ، شقراء
لا تعرف ماطعم السكينة

هزئت بالنوم ليلاً وتعرّت
حيةً تطعم أثماراً لعينة
ويغشّي سمّها عينَ النهار
آه من نكهة ، من غصّة هاتيك الثمار
كل ما في قبضتي رنّ وطار
مثلما طارت فراخ النسر منّي
يوم غطّى واحتي البكرَ الغبار !

* * *

واحتوتني السوق في وجهٍ ، وثوبٍ مستعار
لاهثاً خلف رغيف الذم من عارٍ لعار

* * *

يا إلهي !

كلّ مافي جوّيَ اليوم سحاب

حالكٌ يلتمّ في هيئة تنّينٍ رهيب :

شدق غولٍ ، ناب ثعبانٍ .. ومنقار غراب

(أيها التنّين لاتفرح ولا تدنُ فما في الشبكة

غير بقيا سمكة

من عظامٍ وإهاب !)

يا إلهي ، إنّه يلتفّ من حولي ويلوي عنقي

آه من هذا الجفاف المحرق

آه أنفاسيَ يارب .. أغث هذا الشقي ! »

* * *

وصحا ، فتّح عينيه بخوفٍ وارتياب

زائغ النظرة كالطّفل الغريب

فارتمت منهوكةً ، سكرى ، على وجه الطبيب !

* * *

صدره يعلو وينهار كزورق

في مهب العاصفة

لحظاتٍ ، لحظات .. وسيغرق .

١٩٦١

— ٣ —

رؤى غائمة

بَابَانوِيلْ..
وَالموْتىَ

سماؤنا ، بغبطةٍ صوفيّةٍ ، تضيئها دموع
وبين كلّ نجمةٍ ونجمةٍ ترقرق السمَر
أطفالنا . . عيونهم تألّقت شموع
وفي عروق أرضنا تحرّكت أصابع المطر
سربٌ من الفراش في قلوبنا ،
لايسأم الرفيف
نسرينةٌ حمراء لاتموت في الخريف
أجراس ديرٍ يجهل الصّلاة والنّذور
ويعرف السر الذي يلوّن الزهَر

أنفاسنا مجامرٌ تضوع
بالصندل البريّ والبخور :
لابدّ أن يعود
ميعاده الليلةَ ، يا أحبابه الصغار
تهلّلوا ، تهلّلوا
وليزهر القمر
في كلّ دربٍ موحشٍ . . ودار
تهللوا ..
لابد أن يعود
سحابةٌ جواده في خاطر الفصول
رعودها صهيله ، وبرقها
ماخلّفت نعاله على مشارف الخلود
لابد أن يعود
خياله يخضرّ فوق حائط السماء

وترشف النجوم خفقَ تاجه العجيب

أتذكرون تاجه ، أحبتي الصغار ؟

ياأصدقاء الطّين والزّيتون والحمام

أتذكرون ؟

« من ألف عامٍ ضائعٍ . . وعام

كان صغار (بيت لحم) يسهرون مثلكم على انتظار

وفي عباب الليل لاح الكوكب البشير

ولم يطل غيابه . .

فابن البتول عاد !

على جواد أشقر الجناح

تمسّحت بريشهِ . .

وأقلعت عن غيّها الرياح

الحبّ . . عاد

المنقذُ الطفلُ الالـهُ . . عاد

فألف جيلٍ يستقي من نبعه . . وجيل

لم يبقَ في دروبه السمحاء ظلّ نير .

ومادت العروش باليهود

فاستمسكوا بأمّتهم ، بجوعها الوحشيّ للدماء

وتوّجوه . .

طوبى لكم ، أحبّتي الصغار

فتاجه نخيل ! »

★ ★ ★

الله ! يابراعم الربيع

كيف التّوت أعناقكم ؟

هل عضّنا الصقيع . .

ونحن مانزال في شواطىء المساء ؟ !

من رمّد الشموع في العيون ؟
وأي حوتٍ هائلٍ سطا على القمر ؟
فغيمة السكون
تنيخ فوق عالم البشر

★ ★ ★

« من ألف عامٍ غارقٍ في وحشة المغيب
أحبابه .. لا يذكرون
كيف استطاع حمل تاجه العجيب
عبر شعاب الجلجلة
ولم يقل : ما أثقله ! »

★ ★ ★

متى ، متى ؟ وهل تعود ؟
أم تذبل الوعود ؟

وأنت ، يابن الله ، أنت لونها وطيبها
وأنت ، أنت نسغها الدفيء
ونكهة الثمار في الحصاد .
أعراضنا تلوكها شراذم اليهود
أرواحنا تفسخت .. وقاءها السؤال
وليلة المعاد ..
على تخوم الأرض والزمان
مغارة قفراء .. ما تزال
دروبها مكسوة بالعشب .. ما تزال
وطيفها لم يختلج ببال

★ ★ ★

ويزحف النهار في تثاؤبٍ بليد
على أناسٍ من رخامٍ ،

يرقبون بعثك المجيد

سماؤهم حالت الى دخان

وأرضهم رماد .

١٩٦٢

رُؤىً غائمَة

يخيَّل لي بأني متّ من زمنٍ
نسيت لديكِ تاريخه
وأني لم أزل أحيا ورا عمري
غريبَ الحسّ ، منسياً ، بلا كفنٍ
يعضّ الصخر مسعوراً على روحي
ولماً يدنُ من بدني
فموتي كامنٌ في داخلي ،
يندسّ في العتمات من سري

وأحمل في دمي قبري !

★ ★ ★

ومهما استمتعت بالليل أحزاني
كما تستمتع الديدان بالجيَنمِ
ومهما استعبدت وحشيةُ الصحراء إنساني
وأنشب عقمها الناريّ في نيسانيَ الدنفِ
ألوفَ نيوبه الصفرِ
ومهما جنّ واستشرى طفيل اليأس في ذاتي
كغولٍ من كهوف الدهر يستولي على النّطفِ
يفتّت ماتبقّى من تعلاّتي
ومهما شبّ في صمتي
وطيّ كآبتي جوّعه
سيبقى كالبيادر ، كالصباحِ

كصوت أمٍّ وارفٍ حانِ

سيبقى كل ايماني

بأنك هاهنا .. تغفين في صدري

كما يغفو الجنين الحيّ في أحشاء مصروعة !

★ ★ ★

رؤى قزحيـةٌ شتى

تهوّم في سماواتي ، من الذكرى

رؤى نشوى :

عرفتكِ ، ياسمارا ، جنّةً بكرا

ألوذ بها كعصفورٍ

تقيه أذى الرياح وجوع تنورٍ

عتيقٍ لا يحدّ لجوفه شبعاً ولا ريّاً !

ويفرد ريشَه في حضنها زهوا

فلا تصفرّ ، مهما اجتاحها كانون ، لاتعرى
وتحلو لي بها النجوى
فأنثرها على الدنيا
رذاذاً ناعم اللمسات ، صيفيّاً

* * *

رؤىً أزلية السكبِ
رؤى شتى :
تسلسل حبُّك السحريّ في روحي
وفي أشيائيَ الصغري
كموسيقى من الأغوار تنبع
من وراء مداركي ، معسولةً ، حرّى
تفتّق غبطةً زهراء في قلبي

وتحفر في جليدي ذلك الصمتا .

* * *

رؤًى محزونةٌ لا تنتهي أبدا
كأسرابٍ من الغربان تنعب في شراييني
ـــ فني ريح الخريف صدى ! ـــ
وتعبر أفقيَ الباكي بغير هدى :
عشيّةَ غلغل الواشون كالبرداء في بلدي
تلوّت في نفوسهمو ملايينُ الثّعابينِ
حبالى بالردى والحقد والحسدِ
فراحوا ـــ خوفَ أن يحظى
بعرس الشمس وادينا
وتكتنز الينابيع الشهيّة خصبها فينا
نياسيناً ، نياسينا ـــ

يدوسون الزهور ، يدنّسون عفافها حتى
يجفَّ رحيقُها الشافي فلا تحنو على أحدِ
ويحتفلون بالظلمات أن تبقى الى الابدِ
فكم رقصوا على أنّاتنا . . بطرا
وكم سكروا بما نلقى من الكمدِ
تحدّوا صبرنا واستنزفوا أغلى أمانينا
أبادوا كل ما أعطت من الخيرات أيدينا
وشادوا حولنا ، يا أنتِ ، أسوارا
من الفخّار والموتى
فها أنذا أعيش ورا حياتي ، تافهاً ، ميْتا
كأني نقمةٌ شلاّء ، أو طينُ
بلعنة هذه الاسوار مرهونُ

★ ★ ★

ومن يدري ؟ !

لعل غداً يطلّ مجنّحاً ، حرا

على بيتي

وفي عينيه ، بين يديهِ ،

في بسماته . . مايشبه البشرى

بأنكِ ياسمارا ، ياسما . .

لابد أن تأتي

وأنك قد هدمتِ عليهم الاسوار وارتحتِ

من الاسرِ

وأني عدتُ حياً ، ثائراً ، من غربة الموتِ

لاحرق في دمي قبري !

١٩٦٢

أغنيـة العَودة

هناك . . على امتداد القمح والزيتون والكرمة
سأحيا في ربيعٍ ، ربيع عينيكِ
أطوّف كالصدى[1] الموتور ماتهدا له نأمة
وأوغل في الحراج البكر من أيكٍ إلى أيكِ
ألوب على تعلّاتٍ أساطيرِ
على قدّيسةٍ سمراء ، كالبسمة
سنابل شعرها . .

---

(١) الصدى : طائر الثأر عند العرب .

جاءت بها ريحُ الصَّبا

من بيدر النّـورِ

شذا أنفاسها مالايعي تاريخ (إبريلِ)

ونكهة صوتها أحلام نايٍ دافىء النغمة

ومن أوراس ، من صنعاء ،

من بردى . . إلى النيلِ

تزور ضريحها المجهول أسراب العصافيرِ

لتنثر فوقه أزهى الأكاليلِ

أجل . . ماتت

مساء زفافها الوثنيّ للغولِ !

★ ★ ★

حياتي . . ولتكن نهباً حلالاً للأساطيرِ

سأنفضها ، وان لم أجنِ غير الدمع والشوكِ ،

سأنفضها على واحات عينيك
أنقّب عنه ، عن بطلٍ إلهيٍ
نسيت اسمَه
ومازالت ملامحه مهوّمةً بتفكيري
على النعمى . .
على مفتاح خيرات الثرى يمناه منضمّة
ودفء الحبّ في اليسرى
إذا اختلجت سريرته ، إذا أوما
تحرّك في السماوات العلى لوحُ المقاديرِ !
تعرّى يومها [1] . .
ثم اختفى في الضفّة الاخرى

---

(١) يومها : يوم زفافها الوثني الغول .

فلم نسمع سوى كلمة
أضعناها !
هدرنا مجدها القدسيَ تحت السوط والنيرِ
تنكَّرنا لها جهرا
لأن حروفها شفافةٌ ، حَمرا
كألسنةٍ من النّارِ
تموت . . ولاتطيق العيشَ إلا بين أحرارِ
أضعناها . .
دمغنا جبهةَ التّاريخ بالعارِ !

★ ★ ★

وها قد لفّت الغبراء آلافَ النياسينِ
ونحن على لظى أملٍ بعودتهِ
يكلّلُ شعره وجبينَه تاجٌ من الغارِ

فرشنا دربه العاري بأشلاء الرياحين
وحكنا من لعاب الشمس ، من ذهبيها الداني
له خيمة
نصبناها على سفحٍ لصيقٍ بالحواكيرِ
ليعرف أين ننتظرُ
ليشهد كيف نحيا . . آن نحتضرُ
فيسهر حولنا حتى يضيق بجفنه السهرُ
ويرشح من عروق الغيبِ ،
من تحنانه المطرُ
رياح البحر لم تجلب
لنا بعد النوى غيمة
ولم تحلب . .
بذرنا كلّ ما في البيت لم نترك ولو حبّة

فلم نحصد سوى الخيبة
رغيف الطين نعجنه بأدمعنا
ونخبزه على الاحجار بالشمسِ
وتغزونا من الصحراء قطعانٌ من الحمّى
تعنكب بين أضلعنا
وتنفث حقدها المسعور في أكواخنا سماً
فما تبقي . . .
لنا الا الحصى وأسرّة الأطفال والحسرة
وأجساماً هياكل دونما حسٍّ
مجوّفةً فما فيها سوى القشرة !
وباباً في جدار الليل مفتوحاً على الهجرة
وأجيالاً من التشريد والرقّ

★ ★ ★

فيا قدّيستي ، يا أنتِ .. يا أنت !
قفي صلّي معي ، صلّي
صلاةَ الميْت للميتِ :
« تعال ، تعال ..
مزّق عنك آباداً من الصمتِ
فنحن نموت يا أبتاه !
يا أمّاه .. ما أقسى يد الموتِ !
يتامى .. لم نجد أحداً يكفّننا ويبكينا
ثكالى .. لم نخلّف من يوارينا
فهلاّ عدت يا أبتاه ،
يا أمّاه .. هل عدتِ
وراءكما ، وراء خطاكما ..
أوّاه ، كم نجمة

أراقت زينتَها الدريّ في دهرٍ من العتمة

وكم طفلٍ قضى .. شفتاه

زنبقتان ترتعشان للنّسمة

وتفترّان سائلتين عن حَلمة

قضى جوعاً ولم ترجع

ولم تُنقذ له أمّه

فهلاّ عدت يا أبتاه ،

يا أمّاه .. هل عدتِ

لقد متنا

ومات الخصب في دمنا

ومات وغيّب اسم الله

في وثنيّة المأساة ،

يالو عدت تحيينا ! »

* * *

وفي عينيكِ ، في جنّات عينيكِ
على مرمى ظلال القمح والزيتون والكرمة
ورأسي طائرٌ يغفي على مثنى ذراعيكِ
وقلبي كالشذا الموعود أن تسري به نسمة
الى عرس الثرى الاوّل
الى حقّين عاجيّين مصرورَين بالمخمل ،
أحس يداً تدغدغه ، تدغدغني
وتكسر عن بقايانا جليدَ الليل والكفنِ
فينبض في دمي لهبُ الحياة الغضّة العذبة
وينبت ما رعاه العقم في أحشائكِ الخصبة
فيا بشرى

لقد عدنا . .

مع المأمول من جبّانة الغربة

ونحن أشد إيمانا

بأن الغول لن يحظى بظفرٍ من عذارانا .

ــ : ولكن أين اخوتنا ؟ !

هو العربيّ رمز الصدق إن وعدا

رسائلهم تقول : « غدا . . »

ونحن نريد قبل غدٍ !

أما علموا ؟

ألم تحمل أغانينا . .

إليهم أننّا عدنا ؟

نعم . . عدنا

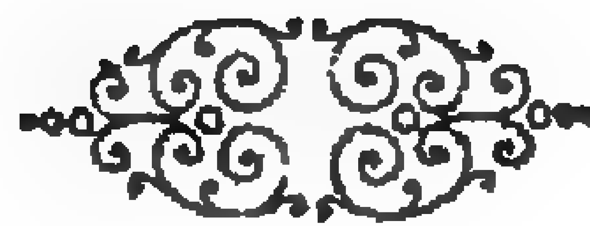
وعادت تغمر الارجاء بالنعمى أيادينا

وعاد الله . .

ينفخ من جديدٍ

روحه فينا .

١٩٦٠



— ٤ —

ظلال الغيوم

ظلال الغيوم

الصّيف ، باب الرزق ، مفتاح الخزينة
عيد النّمال
حلم الالوف الهائمين على الليال
لاشغل ، لامأوى ولا حتى مؤونة !
الصيف كان . . ومايزال
كالصلّ ينفث في الهواء سمومَهُ
حرّى كأنفاس المدينة
وعلى الرصيف
صورٌ مشوّهةٌ حزينة

كتلٌ من اللحم الطريّ
تعيش ، تحلم بالرغيف
جثثٌ مطوّقةٌ تمر بها النّعال
ويقيء بعضُ العابرين :
« لن ننتهي من هذه الجيف اللعينة ! »
فتلوك في صمتٍ مرارةَ ذلك القيء الوبيل :
« جيفٌ !.. بلى جيفٌ .. »
وينفضها السعال
فتئنّ في خجلٍ ذليل
وعيونها الرمداء تبحث عن ظلال

★ ★ ★

مدّ النهار ..
وشفاههم زرقٌ مشقّقةٌ كبالية النعال

وعيونهم ــ غرثى كأفراخ الدجاج
بين المزابل والغلال ــ
تنداح داميةَ الإطار
فوق الرصيف وعبر أبواب الزجاج
طول النهار . .
مدّ النهارِ وليس من قوتٍ ،
ولاداعٍ ، ولا حتى ظلال !

★ ★ ★

يا أصدقاء !
مهلاً فقد أزف المساء
ليل المدينة طيّبٌ ، يا إخوتي
يندى ويفتح ساعديه ، رأفةً ، للأشقياء
حتى سماء الليل في عليائها ؛

حتى السماء

تحنو على المستضعفين الابرياء

بدموعها الازليّة المتجمّدة

مابين أهداب الدجى

لكنّها سرعان ماتنسى إذا عاد الصباح

فتذوب أدمعها ويرشفها الضياء

وتملّ غبرتَها العيونُ المجهدة

★ ★ ★

وتململوا . .

وتلفّتوا . .

فخشيت أن الارض قد تتزلزلُ

أَو أنّ سقف بلادنا يتفتّتُ !

أَمْ تخلّت عن بنيها الجائعين

إذ لم تجد في بيتها ماتأكلُ
وأبٌ تقوّس ظهره تحت السنين
كالهيكل العظميّ ، روحٌ يحتويها هيكلُ
وصبيّةٌ سمراء . . يجهش قلبها القلق البريء
كحمامةٍ زغباء تنبش في جيوب القطبِ
عن عشٍّ دفيء
« أين العريس المرتجى ؟
ومتى يجيء ؟ !
وفتىً . . يهدهد سرّه أملٌ حزين
« لو كان لي بيتٌ ، سعاد
لكنت أسعد ما أكون ! »

★ ★ ★

نهضوا بإكراهٍ فلم يحفل بهم خدَرُ المدينة

لم يختلج عرقٌ بأوصال السكينة
لم يعوِ كلبٌ خلفهم : « ماهؤلاء ؟ ! »
في كلّ عينٍ غيمةٌ
وبكلّ صدرٍ دمّلُ
وكحيّةٍ سوداء تلمع تحت ضوء الكهرباء
وكلعنةٍ لا تُحملُ
من كلّ كِتفٍ قد تدلّى منجلُ
ومشوا يجوبون الشوارع ذاهلين
لاشغل ، لامأوى ، ولا حتى عشاء
والنائمون على الحرير
أسمارهم شعرٌ —
ولكن ليس من شعري

فذكري لعنةٌ ملء القصور ! ـــ

أسمارهم زجلٌ يموت إذا تعرّض للضياء

زجلٌ وموسيقى وغانيةٌ وقاح

تختال بالأطباق ، بالأكواب ، عاريةً . .

وبالجسد المباح

« إشرب ، وكلْ ماشئت ، واستمتعْ

فمازال الصباح

في الضفّة الاخرى ؛

أتخشى أن يباغتك الصباح ؟ ! »

* * *

يا إخوتي

لاتنفروا من رؤيتي

أنا مثلكم شيءٌ بلا معنىً صريح

وجهي بلا هدفٍ وإيماني جريح

لا ربَّ لي !

لا شغل ، لا مأوى ،

ولا حتى ضريح ! !

١٩٥٩



الفأر والغراب

ها أنا ما زلت فأراً جائعاً ، يا أصدقاء
لاطياً تحت الدجى القاسي وفي جوف الدهاليز اللعينة
أتلوّى ، أقرض العتمة ، أمتاح الأسى ..
أدمي سكونه
علّني أحظى بسرداب إلى بيتِ مؤونة
سمّخ الطحلبُ في جلدي وداخت
في شرابيني العفونة
وأراني لم أجد بعد ،

أراني لم أجد ما يملأ الجوفَ الخواء

* * *

كل بيتٍ ضفته لم ألقَ فيهِ
غير أطباقِ نحاسٍ صدئة
وخلايا جفّت الديدان فيها
ونثارات دمىً مهترئة
وجرارٍ تصفر الريح بها
ليس فيها ما يقيت العنكبوت
ها هنا ينتحر الضوء انتقاماً للعيون المطفأة
وهنا ذكرى حياةٍ وشظايا مدفأة
وعلى الابواب والجدران والسقف رسوم
لصقت كالاوبئة :
ثعلبٌ ، صلٌ بشوشٌ ،

وغرابٌ لا يموت !

* * *

أنا فأرٌ موجعٌ يا أصدقاء
ملء جحري وحشةٌ ، حقدٌ صديديٌ ، وذكرى
وسعالٌ كافرٌ يجهض أنفاسي ويذروها دماء
في الهوء الرطب ، حرّى
وبرأسي سيل أشباحٍ أبى أن يستقرّا
جوهر الكون أمامي يتعرّى :
يا إلهي ، لِمَ أرسلت إلينا الانبياء ؟
لِمَ نزّلت وصاياك على أعمى ،
أصمّ الروح ، أبكم ؟ !
أين يا ربُ ، ولِمْ كانت جهنّم ؟
طالما في الارض ناسٌ . . .

يتشهّون انسلاخَ العمر في قاع جهنّم!
يا إلهي ، أيّ معنىً لعذابات الجحيم ؟
طالما يلتهب الثلج ويخضّر الهشيم
ويعيش الفأر نسراً بين أحضان الجحيم !

أنا فأرٌ خائفٌ ، يا أصدقاء
ربما أقضي أماسيّ شتائي دون قوت
ربما أُدفَن حياً في سراديب البيوت
خاطري يهفو إلى الحقلِ :
فراشِ الشمس ، حمّامِ النجوم الساهدة
ومراحِ الأخيلة
علّ فلاحاً تناسى سنبلة
علّ ساقاً ، علّ عرقاً مهملاً مازال يدعو حاصدَه

علّني أخطف ما أقتاتهُ :
قشّاً ، جذوراً ، ونسماتِ صباحٍ باردة
قيل لي إن غراباً وافداً من خلف شطآن النهار
جاء من خلف البحار السود ، من جنّ القفار
شرهَ المنقار ، وحشيَّ الفضول
صوته كارثةٌ تقفز من دارٍ لدار
مدَّ جنحيه على كلّ الحقول
فبكت أمي ، بكى الله بعينيها . .
وتمّت حلقات المهزلة :
كلّ عذراء كحلم الفجر أمست أرملة
خيمة الناطور ، أرجوحة طفلٍ . .
من جراح الزنبق الغضّ الخجول
ودموعِ الغيم . . حاكتها يدا أمٍّ بتول

وغفلنا ..

فاستباحتها السيول !

ذلك اليمّ السديميّ العباب

ليس في عينيه مايغري طَموحاً بالرحيل

مذ غفا زورقنا الصادي على مجد السراب !

الرياح الخضر لم تغدق لنا غير التعلّات الكذاب

الدوالي شفّها العقم فلم تحلم بتموز ، بآب

والعصافير التي كانت تجوب الأفق صبحاً

والتي كانت ترشّ الجوّ إرناناً خضيل

كلما عاد الأصيل

هاجرت ، طارت وراء المستحيل .

.. يا لخوفي من أذى هذا الغراب

قسماً لن أبرح الجحرَ

ولو صرت إلى لحمٍ قديدٍ أو تراب !

★ ★ ★

أنا فأرٌ ...

وأخي في البيت عملاقٌ ، أخي أصغر منّي

يسهر الليلِ وفي عينيه إصرارٌ ،

وفي النفس جراحاتٌ تغنّي

مثلكم .. يا أصدقاء

مثلكم ينسج من أعصابه ، من عنفوان الحس ، فجره

ويضحّي بالعقيقِ المندّى : قطرةً تزحم قطرة

طائر الحبّ رمى في قلبه ميلاد زهرة

ضحكت أشرعةٌ ، غرّد ينبوعٌ ،

تهادت في المدى المغلق نجمة

وكأكام ورودٍ تستفيق

رفرفت في شفتيه ألفُ بسمة

مثلكم ، يا أصدقاء

همُّه .. أقدس من أن يدرك الفيران والغربان همّه

مثلكم يكتم سرّه

مثلكم يحمل نحو القمّة الشماء صخرة

وتدوّي في حناياه ينابيع الشباب

مثلكم يربط بالقدّيسة الزهراء عمره

مثلكم يبسم للنّار ، أخي يبسم للنارِ ،

أخي .. يا أصدقاء

وأنا مازلت فأراً

لاطياً تحت الدجى القاسي

وفي جوف المتاهات الخراب

أتلوّى ، أقرض الوحشة ، أمتاح السراب

أتقي جوعي وخوفي

أن يبيعاني إلى ذاك الغراب !



أشباح الهزيمة

كعصفورٍ غريبٍ فر من حبسهِ
الى غابٍ تميس غصونه الخضراء في نفسه
وحيداً تحضن الاوراق نجواهُ
وأسرارَه
كنجمٍ ثار في وجه السماواتِ
لأنَّ مداره الأزليّ قيدٌ ملَّ مرآهُ
فكسّره ، وأبحر في مدى الآتي
يغنّي حلمه ، ويرشّ — حيث يشاء — أنوارَه
كعفريت أصرّ .. وجنّ إصراراً على تحطيم قمقمه

ولم يعبأ براصدهِ ولا برقيْ طلاسمهِ
وأرضى حقدَه العاتي وإصرارَه
كميْتٍ لم يطق سكناه في رمسِه
فشقَّ جداره الفضيّ واستعلى على أمسِه
. . خرجت اليوم من أحضان قريتنا
فتذكاري
هنالك قصّةٌ تنساح بين الجار والجارِ
ومهزلةٌ تفور بها حصيلة كل ثرثارِ :
« تولّى هارباً من أرضه المعطاء
— مجنونٌ ! — إلى الصحرا
أيحلم بالرمال وبارتشاف مياهها الحرّى ؟
لعل به هوىً (لزنوبيا) يدعوه أن يرحل
الى الأطلال يرثيها

وينحر عمره الباقي على نجوى لياليها
ولا عاش الذي يبخل ! »

* * *

وفي سمَر العجائز والمسا تمثال إصغاءٍ وكتمانِ
تحسّ بأحرف اسمي : كلّ حرفٍ حوله لعنة !
فتبسم للحنان السّمح يلقاني
بوجه الثائر القاسي ، يحاربني بلا هدنة :
« عقوقٌ ! ياضياع الحمل (والريحان) والسهرِ
لوَ انّ حليبها . . يالو أراقته على حجرِ
ولم ترضعه إياهُ
أينساها ؟
أينسى أمّهُ ؟
وأخاه . . ينساهُ ؟

أينجو من خطى الرعب الجحيميّة

تلاحقه ، تعيث بقلبه في كل أمسيّة ؟ ! »

* * *

ـ : كفاكم أيها الجبناء ! أفعاكم تؤرّقني

ووقع حديثكم ينصبّ كالحمّى على بدني

هربتُ ؟ ! أجل هربت وليس من أرضٍ

خلا من كفّها قوتي

وجفّ عبيرها واستوحشت أطيارها منّي

وغامت ، بغتةً ، ضحكاتها القمراء في لحني

وكنتُ . . وما أزال أريدها عرسي وتابوتي

ولكنّي ، ولكن . . ـ

(آه ما أقسى رؤى الماضي

تحرّر دجلةٌ وبنوه أحبابي

من الغول المخيف الجائع اللاطي لدى البابِ
ومن (نوري) ومن نيره
وقلبي لم يتح لي جرحه يوماً لتحريره
وددت لو َان ّ ما فيه من الذكرى
تموت فدى هنيهاتٍ من الآتي
كما أهوى ، كما أختار .. أحياها !)
ـــ ولكنْ كنت بينكمو
غريباً ، ضائعاً عنكم وعن ذاتي
أراكم في الضحى موتى
وما أنتم بأمواتِ
وتحت الليل أبطالاً
ولكن دون أصواتِ

فأنكركم . .

وأغرق في خيالاتي .

وكنا نلتقي في ساحة القرية

لنكشف عن نوايانا . . .

(هي الأعمال بالنيّة !)

ونندب حظنا في كل يوم خمسَ مرّاتِ !

هناك قوافل الأيام كانت دائما تجري

أمام عيوننا الحولِ

كرهت ، سئمت وطأتها على صدري

وأنتم في تثاؤبكم سكارى دونما خمرِ

فلا تستشعرون أسايَ ،

لا تدرون ما أدري

من الأيام وهي تدور حولكمو
خيولاً أنعلتها الصُّدفة العمياء من كبدي
صوىً متشابهاتٍ بئس مرآها
دمىً متحركاتٍ لا جديد بها سوى العددِ
يزيد .. يزيد يوماً ، ليلةً ، عاماً .. فأجيالا
وشيءٌ مبهمٌ في النفس ، في الأعماق ، مازالا
يفتِّش عن جديدٍ ، عن غريبٍ رائعٍ ،
عن شبه مجهولِ
وأزمع أن سيلقاهُ
ولو كانت حياتي من ضحاياهُ !

★ ★ ★

وأميّ .. ياأميات الرضى ،

لا . لست أنساها

وهل تنسى أياديها ؟

وهل تنسى حكاياها ؟

أيمكنني تناسيها ؟

ودفء حنانها ينثال نعمى في شراييني

فيبكيني !

ليرع قلوبكنّ الله ولتَطوَ الرواياتُ

وعذراً .. يا أميهاتُ

لأني شاعرٌ لا يستطيع النومَ

فالآلام ملء اللحن في وترِه

ويضرب في الدجى كالريحِ

لا يدري مدى سفرِه !

تدمر ـــ ١٩٥٨

— ٥ —

أغنيات للصّيف

« الى سمارا . . »

ياحراج الزّيتونِ إن عادكِ الصيفُ
حفياً بذكريات الأحبّة
باركي حبّنا ليزهر فينا
من جديدٍ ، وتشربَ الحور نخبَه

على مشارف « صافيتا » — تموز ١٩٦١

— ١ —

في حقول الزمان حبّاتُ عمري
رشّها الله . . وانتظرت حصادي
كان تشرين في الحواكير يعوي
وعلى النجم دمعةٌ من سهادي
أتخون الأمُّ — السماءُ بنيهـــا
فيجازوا بحصرم الأجدادِ ؟ !
الشتاء اللاهي يغيم ولا مـــاءٌ
فـأطوي أيّامـه دون زادِ
عشت ألفاً جوفاً على مايمدّ الصخرُ
للساغبين من أعيـــادِ

وعلى ما تفت طـاحونة الحرمان

عـــبر الدروب من أكباد

ليس في الأرض مايقيتُ فأوصي

برفاتي وليـــمةَ للجرادِ !

طال ميعادها . . ومازلتَ ياعمري

مسيحاً يدمىٰ على ميعـــاد

* * *

وأطلَّت . . كان الربيع بعينيها

يغنّي للريح مجـــدَ بلادي

من وراء المـــدى أطلّت

وكم يهوى طموحي تماديَ الأبعادِ

فالسماء الحرون تهمي ، ويسري

نفَس الله في ضلوع الجمـــادِ

لكأني بالليل ينشقّ عن ألف ضحىً ،

عن صهيل ألـــف جـــوادِ

فتدبّ الحياة بالهيكل البالي

وتزهو ، خضراء ، دنيا الرمادِ

حبها في دمي .. فأيّ العذارى

لم تبخّر أحلامهـا من فؤادي ؟

وغداً عرسنا .. فهل من إلٰهٍ

مـاتمنّـى لنفسه ميـلادي ؟ !

- ٢ -

في خطاي الحيرى لهاثٌ :

« إلى أينَ ؟ »

وفي القلب دمعة استفهامِ

وعلى جبهتي وسامٌ من الشمسِ

وفي الريح من صدى أقدامي ..

نبرةٌ تجرح النعاس وتهوي

صاعقاتٍ على خدور النيّامِ

وعلى دربيَ المعمّى صبايا

يتغامزن : « ما لهذا الحرامي ؟ ! »

ـــ : أنا من مطلع الثريا ربابٌ
فهي تدري بما ورا أنغامي
بدويٌ أضاع في الرمل عينيهِ
وألقى بروحه للظلامِ

* * *

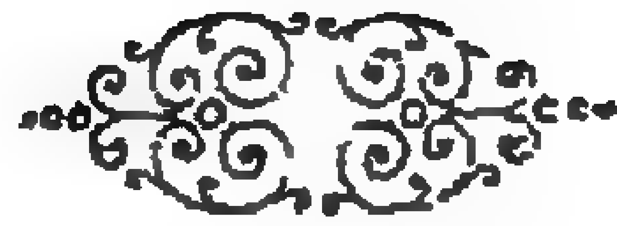
وأراها في آخر الدرب تومي
لي فمنديلها رفيف حمامِ
تتغنّى بالموسم الحلم حتى
يتجلى الإلٰه للأحلامِ
فتفورِ السفوح خصباً وتهمي
شرفات الغيوب بالإلهامِ
رحلتي ، رحلتي إليها نشيدٌ
في فم الله لم يُسَمْ بكلامِ

رحلتي .. ما ملاعب الحور لو لم

يكن الطين مسكَ ، مسكَ الختامِ !

أبداً يهجع المسافر أو يصحو

وتمضي مراكب الأيامِ ...



— ٣ —

في عباب الدنيا سريت وحيدا

وعلى هامها طويت جناحي

شاعرٌ أحرق العشايا مع الجنّ

وغذّى حروفه بالجراحِ

سائلاً عن عروسه كاشفَ الغيبِ

وما في دناه من أشباحِ

لم ينل غير ماينال شراعٌ

نائح فوق جثة الملّاحِ !

* * *

وتخلَّيتُ عن قبوري

وعن ندب صحارى

تغصّ بالأتراحِ

قدري دست نيره تاركاً في

كلّ فجٍّ للرعد حملَ سلاحي

و « سمارا » في المشرق المترامي

واحة لاتضيق بالملتاحِ

تحتويني ، تسقي هنيهاتِ عمري

صفوَ مافي النعيم من أفراحِ

فالعيون التي أباحت ثلوجي

يوم باركت في مداها صباحي

والشفاه التي سبتني عطاياها

وغضّت من زهوة التفّاحِ

والقلوب التي تصلّي لأجلي

لهنائي ، وتنتشي بصداحي ،

هي زادي ، وإن حييت بلا زادٍ ،

وأنسي ، على الليالي ، وراحي

فالحبيس الذي ينقّر أضلاعي

ويزقو : « متى يُفك سراحي ؟ »

في عِباب الصفصاف حكت لهُ

عشاً وديعاً منمناً بالأقاحي

ليت تشرين لايعودُ —

وليت الصيف ماهمّ مؤذناً بالرواحِ —

واذا عاد فليمتْ دون بستاني

تواريه عابثات الرياحِ

— ٤ —

يورق الصيف في الجبال حكايا
عن صبيٍ أضاع في البحر أمّه
مدّ من عمره الطريّ شراعاً
يتلوّى على أنامل نسمَة
ورمى ظلّه على الموج ، يبكي
فيعرّي أغواره المدلهمّة
رشف الحزنُ من محيّاه ماشاءَ
وفي صدره تقيّأ سمّه
واستثارت عرائسَ الماء شكواه
فهبّت تلفّ بالملح كَلمَه

ويقولون : « أتعبته الليالي

فغفا حالماً على زند نجمة

قلبه الطفل يذكر البحر عنه

ضمّ أغلى كنوزه حين ضمّه !

★ ★ ★

وأنا ضعت في الرمال ..

وخلّفت « سمارا » تنامُ

في حضن غيمة

حبّها .. نعمة السماء إذا ما

كان للزرع غيثُ نيسان نعمة

في عيون الأطفال من سحر عينيها

ظلالٌ تضيء لي كلّ عتمة

صوتها .. كيف يا إلهي ؟ وأنّى

لك قطّرته ؟ ومن أيّ كرمة ؟!

أين يا شقرة السنى خصلاتٌ

عمّد القلب في شذاهن حلمَه ؟

بعثرت موسمي الحريرَ النسيمات

أتعيا بيادري أن تلمّه ؟!

ثغرها .. بعض ما ينمّون عنه :

« يسكب النحل في خلاياه طعمَه !

برعمٌ في الجنان فتّحه الله

ففيه من الألوهة بسمَة

ثم أوحى إليّ أن أقحم التّيهَ

فأحظى بمصرعي أو أشمّه

فعلى زرقة المدى ليَ ريشٌ

وعلى خفقهِ السرانيِّ خيمةَ

ألف جيلٍ ضعنا . .

وحين التقينا

لم يكن فوق ما بلغناه قمّة !

— ٥ —

ليل تموز في الجبال حكايـــا
سندبادٍ قضى، ولم يقضِ ، نحبَه
عرّشت داره على كتف الريحِ
فمن غربةٍ لمـــأساة غربَة
كم أحس الخرابَ في بهرج القصرِ
وزهوَ الحيـاة في صمت خربَة
كان في شعبه نبياً . . وولّى
تاركاً في جنـازة الحس شعبَه

حملت نعشَه الزوابع نـــاراً

فتناسى ، خوفَ الشياطين ، ربّه !

* * *

يا « سمارا » كفى حكايا وعذراً

فـالنداء المشؤوم ينفث رعبَه

مـــاوراء الوداع ؟ لاتسأليني

أنا أعمى يمشي وقـد ضل دربَه

يعرف النهر نبعَـــه ويضحّي

بدمـاه لوكانـ يدري مصبَّه

التعـلّات تمّحي وعلى الآفـــاقِ

راح المسا يُرمِّـــد شهبَـــه

أينال التراب من دمعك الغالي ؟

وتُدمين في غيـــابيَ رطبَه ؟

ما انتفاع الورود بالمـــاء إمَّـا
هبَّ حقد الخريف آخر هبَّة ؟ !

* * *

يا « سمارا » غداة تنكسف الرؤيا
لدينا ، ويُفلت اليأس ذئبَـــه
حين أمضي خلف التلال وحيداً
ويجرّ النسيان خلفيَ ثوبَـه
حين أغني على الرمـــالِ . .
ومن حولي يبثّ الصمت الرماديّ سحبَه
فـاسمعي أغنيـــات قلبٍ
جريح الآه . .
أصفى لمجـــد عينيكِ حبـه
وإذا مت بعدهـــا لا تبوحي
أنّ لي في سمـاء عينيك تربَة !

درب الواحة

هذه محاولة لشاعر ناشىء . ومع ذلك فقد حققت ما قد يعجز عنه كبار الشعراء .

ان علي كنعان يلتزم دون ان يفقد الشعر فنيته ، ففكرته لها لون وطعم ورائحة . أنه يعرف كيف يحولها الى جزء لايتجزأ من حياته ، فهي تعيش في أحاسيسه ، وأخيلته بين تقاليد بيئته وعاداتها ، تصبح حباً عندما يحب ، وثورة عندما يثور ، وشفقة عندما يشفق .

لمسات ناعمة لطيفة – صور أثيرية أو تكاد – وبذات الوقت مسيرة ملحمية من الماضي الى المستقبل ، من الميلاد الى البعث الكبير .

وهكذا يتحول نشيد العودة الى نشيد الظفر .

انه يطور عمود الشعر دون ان يقوضه ، فهو ثورة من الداخل تحفظ وتجدد ، تنمى دون ان تقهر ، تتمرد دون أن تحطم ...

مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

دمشق ١٩٦٦

سعر النسخة

[illegible]